

مساكين

عن كتاب انطلاق الروح

للبابا شنودة الثالث

قال لى و هو ينفس دخان سيجارته فى وجهى : " لعلك تعجب من حالتى الآن " فنظرت الى شعره الطويل المصفف اللامع و عينيه الغائرتين ، و أسنانه الصفراء ، و أصابعه المرتعشة فى عصبية ظاهرة ، و شعرت نحوه بكثير من الاشفاق ... انه واحد من الذين فداهم المسيح بدمه ... و قبل أن أجيبه بشئ استطرد فى مرارة : " اننى لم أكن هكذا كما تعلم ... كنت قوى الروح ، رضى الخلق ، مواظبا على الكنيسة ، ثم أخذت أفتر شيئا فشيئا حتى انقطعت عن حضور الاجتماعات فلم تفتقدنى الكنيسة أو تسع لارجاعى ، و زاد غيابى و زاد معه فتورى ، و ضعفت ارادتى ، و ظلمت أهوى من قمتى العالية قليلا دون أن يفتقدنى أحد ... الى أن افتقدنى الشيطان ... و عندما أتى وجد قلبى مزينا مفروشا ووجد ارادتى منحلة ، و لم يجد حولى انجيلا و لا صلاة و لا واحدا من المرشدين الروحيين ، و هكذا وضعت فريسة سهلة ، و سرت فى الظلام ... الظلام المحبوب الذى أحبه الناس أكثر من النور " . و هز رأسه فى هدوء و قال : " اننى أشتري الآن أربع علب من التبغ كل يوم " .

و شهقت فى دهشة و ألم و لكنه استمر " و أذهب الى دور الخيالة ما لا يقل عن ثلاث مرات فى الأسبوع ، و أقرأ القصص العابثة ، و أتسلى بالأغاني الماجنة . و أصطحب جماعة كأنهم من زبانية الجحيم ... فى بدء سقوطى كنت أقاوم الخطيئة و لا أستطيع ، لضعف ارادتى ... أما الآن فاتى لا أقاوم على الاطلاق " ثم ضحك فى استهتار و قال : " بل أخشى أن أقول ان الخطيئة هى التى تقاومنى ، و لكنها لا تستطيع لضعف ارادتها " .

و كنت خلال ذلك حزينا جدا ، أما هو فنظر الى نظرة قاسية و قال فى حدة " هل تحسب أننى سأحاسب وحدى على خطاياى . كلا . بل انكم ستقتسمون الحساب معى ... فلو اعتنت بى الكنيسة ما وصلت الى هذه الحالة " .

ليس المهم يا صديقى القارئ أن أكمل لك قصة هذا الشاب فانها واحدة من شبيهات كثيرات . على أننى أقول لك اننى رجعت الى منزلى فى تلك الليلة و أنا فى غاية الألم من أجله و من أجل نفسى . أخذت أسائل نفسى فى صراحة : كم شخص مثل هذا تدهورت حالته نتيجة لعدم افتقادى و عدم اهتمامى ؟ و أخذت أستعرض أسماء الذين لم أفتقدهم منذ مدة ، و انتابنى خوف و هلع ، و شعرت نحوه بكثير من

القلق ، ثم تساءلت : أ لعل وجودى خادما هو معطل لخدمة الله ... و رنت فى أذنى عبارة الشاب " انكم ستقتسمون الحساب معى " و تذكرت قول القديس يعقوب الرسول : " لا تكونوا معلمين كثيرين يا اخوتى عالمين أننا نأخذ دينونة أعظم لأننا فى أشياء كثيرة نعثر جميعا " .

و لما استمرت حالة الاضطراب مدة معى ، طلبت اعفائى من الخدمة ، و اذ رفض طلبى ارتعيت أمام الله و بكيت بكاء مرا . عرفت انى مسكين ...

مسكين عندما رضيت أن أكون خادما و لم أقل عبارة ارميا : " آه يا سيد الرب انى لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد " . و مسكين عندما كنت أحسب الدرس مجرد محاضرة ألقيا فى هدوء و أنصرف فى هدوء .

يا اخوتى القراء صلوا من أجلى جميعا ، و من أجل كل مدرسى مدارس الأحد فانهم مساكين مثلى و محتاجون .

و اذ أشكو و اتألم من مسئولية فصل صغير ، ماذا أقول يا اخوتى عن آبائى الكهنة ؟ أ ليسوا هم بالاكتر مساكين جدا ، ماذا يفعل الكاهن و هو مسئول عن خمسة أو عشرة آلاف نسمة ؟ ماذا يجيب عندما يناديه الله " اعطنى حساب وكالتك " .

فى كنيسة الآباء الأول كان يعاون الكاهن جماعة من الشمامسة ، يعملون معه و يساعدونه فى الخدمة و يأكلون مثله من مال الكنيسة . أما الآن فإن أبانا الكاهن يعمل بمفرده ، فصلوا من أجله كثيرا حتى يعينه الله على اتمام واجبه ، و أنت يا أبى الكاهن ما الذى دفعك الى الكهنوت ؟ هل نظرت الى امتيازهم أم الى مسئوليتهم ؟ أ لا تعرف يا أبى أنك مسئول عن كل رعيتك : الكبار و الصغار ، الرجال و النساء ، الشبان و الشباب . و لست مسئولاً عن يحضرون الكنيسة فحسب ، بل أيضا عن فى دور العبث و الفساد ، عن كل شاب ماجن فى الطريق ، و كل سكير فى حانة ، و كل نزاع فى أسرة .

ان لم تعرف يا أبى أنك مسكين جدا فخير لك أن تعرف هذا من الآن . فادخل الى مخدعك و ابك بكاء مرا . سلم الأمر لله . قل له انك ضعيف ، و ان حملك ثقيل ، جاهد و اسهر ، لنلا يأتى بغتة فيجدك نائما .

ان كان أبونا الكاهن هكذا فماذا نقول يا اخوتى عن آبائنا الأساقفة ، الذين سيسأل الله كل واحد منهم عن حوالى مائتى ألف نسمة أو أكثر . كهنة و علمانيين ؟! أ لا تتروا معى يا اخوتى أنهم مساكين جدا . فصلوا من أجلهم بلجاجة حتى يساعدهم

الله على أداء أعمالهم . و أنت يا أبى الأسقف ما الذى دفعك الى الأسقفية ؟ أ هو المنصب أم المسئولية ؟ هل اشتبهت فيها المركز و السلطة و لقب " صاحب النيافة " و عضوية المجمع المقدس ، أم انك تشتهى تخلص النفوس !

ثم ماذا فعلت يا سيدى الأسقف بخصوص مسئوليتك ؟ قارن حالة الابيارشية منذ توليتها حتى الآن ... هل تقدمت أم مازلت كما هي ؟ يحسن بك يا أبى الأسقف أن تدخل الى قلايتك و تبكى بكاء مرا . تذكر أن الرهبان القديسين كانوا يهربون من هذا المنصب لأن مسئوليته مخيفة . فاذا ما أمسك واحد منهم بالعنف و رسم أسقفا رغما عنه كان يبكى و يصرخ أمام الله قائلا : " أنت تعرف يارب أننى ذهبت الى الدير لأخلص نفسى ، و هأنذا قد أرجعت الى العالم و لم أخلص نفسى بعد ، و مطلوب منى العمل على تخلص الآخرين أيضا . و أنا يارب لا أستطيع ، فاعمل أنت " و كان الله يعمل .

ثم ماذا عن آباءنا البطاركة الذين سيسأل الله كل واحد منهم عن حوالى ثلاثة ملايين نسمة فى مصر ، و عدد أكثر من هذا فى الحبشة و السودان و الخمس مدن الغربية التى نسمع عنها فى القداسات ... ماذا نقول عن هؤلاء و مسئولياتهم الخطيرة ؟ أ ليسوا هم أيضا مساكين ؟ ... صلوا يا اخوتى من أجل كل بطيريك حتى يتمكن من القيام بواجبه و حتى يعطى جوابا حينما يسأله الله عن نفسه و نفوس الأساقفة و القسوس و الشمامسة و الرهبان و العلمانيين ، و عندما يسأله عن حفظ قوانين الكنيسة و عن نشر الأرثوذكسية فى العالم .

و أنتم يا من سترشحون للبطيركية فى يوم ما ، ان عرضت عليكم فاهربوا لحياتكم ، و ان دعاكم الله فانظروا الى مسئولياتها ، و ادخلوا الى قلالكم و ابكوا امام الله بكاء مرا .

يا اخوتى القراء : لا تنظروا الى خدام الله و من يتحملون المسئوليات نظرة المتفرج تمدحونهم ان أحسنوا و تحاسبونهم ان أساءوا و انما صلوا من أجلهم حتى ينجح العمل .

و أنت يا سيدى الخادم اهتم بالمسئولية و ليس بالمنصب . و متى شعرت بالعبء الق على الرب همك و هو يعولك .

أغلق الباب و حاجج
و املاً الليل صلاة
فى دجى الليل يسوعا
و صراعا و دموعا